الفصل الرابع

التعلم والتعليم فى القرآن

- التعلم عن طريق القراءة والتلقى .
- سؤال أهل الذكر والخبرة .
- الرحلة فى طلب العلم .
- ممن نتعلم ، وكيف نتأدب مع المعلم ؟
- وسائل تحصيل العلم .
- التعليم والبيان بعد التعلم .
- ألا يستحى من قول : « لا أعلم » .

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

التعلم والتعليم .. فى القرآن

● القرآن يأمر بالتعلم عن طريق القراءة :

أمر القرآن الكريم بالتعلم ، منذ أول آيات أنزلها الله من وحيه على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

أمرت الآيات الكريمة بالقراءة مرتين ، والأمر لرسول الله بالأصالة ، ولكل من يتأتى خطابه بالتبع . والقراءة هى وسيلة التعلم ، ومفتاح العلم ، سواء فسَّرنا القراءة بالمعنى الحقيقى ، وهى القراءة للكتاب المسطور ، أم فسَّرناها بالمعنى المجازى ، وهى القراءة لكتاب الكون المشهود . على نحو ما قال الشاعر :

تأمل سطور الكائنات ، فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائل

وقد خُطَّ فيها لو تأملت سطرها : ... ألا كل شىء ما خلا الله باطل !

ولعل ذكر « القلم » فى السياق ، يرجح التفسير الحقيقى للقراءة ، فهو أداة التعلم .

ومن أوائل ما نزل من القرآن سورة « القلم » ، وفيها يقسم الله بهذه الأداة

---

(١) العلق : ١ ـ ٥

الخطيرة ، التى تنقل العلم من فرد إلى فرد ، ومن جيل إلى جيل ، ومن أُمة إلى أُمة : ﴿ ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) .

* *

● **التعلم عن طريق التلقى والمشافهة :**

ومن وسائل التعلم : تلقى العلم عن أهله عن طريق السماع والمشافهة والصحبة .

ومن هنا حرَّض القرآن على النفير لطلب العلم ، والتفقه فى الدين ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ، فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٢) .

استخدم القرآن هنا كلمة « النفير » فى قوله : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ .... ﴾ ، وهى الكلمة التى تُستخدم فى الجهاد ، ليوحى بأن طلب العلم ضرب من الجهاد فى سبيل الله .

وفى الحديث الذى رواه الترمذى : « مَن خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

والمراد بنفير الطائفة المؤمنة للتفقه فى الدين : أن تتلقاه على أيدى العلماء الربَّانيين الثقات . الذين يَعلمون ويَعملون ويُعلِّمون ، بحيث يعيشون فى جو العلم ، وفى صحبة أهله ، يأخذون عنهم مشافهة ، وبلا واسطة ، ويسألونهم فيما خفى عليهم ، ويناقشونهم فيما لم يقتنعوا به ، ويستمعون إلى أسئلة زملائهم ومناقشاتهم ، وإلى أجوبة شيوخهم وشروحهم ، وتتكوَّن من خلال ذلك كله « مَلَكة » العالِم ، وعقلية الباحث ، الذى يعرف الحق بدليله ، ويعرف الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال .

---

(١) القلم : ١

(٢) التوبة : ١٢٢

OBEIKAN.COM

ومن أجل ذلك كان السَّلَف يرون التعلم الحقيقى إنما يكون بصحبة العلماء ، وملازمة مجالس العلم ، ولا يكتفون بمجرد قراءة الكتب أو الصحف من غير أخذ عن شيخ يسدد الطالب إذا أخطأ ، ويبين له ما التبس عليه .

ولهذا كان من وصاياهم الشهيرة لمن يطلب العلم : لا تأخذ العلم من صُحُفى ، ولا القرآن من مصحفى !

يقصدون بالصُحُفى : الذى يأخذ العلم من الصحف ، لا من شيوخه وأربابه المتقنين له ، العارفين بدقائقه ، القادرين على كشف غوامضه ، وفك رموزه ، وتفسير مصطلحاته .

ويقصدون بالمصحفى : الذى تعلَّم القرأءة من المصحف وحده ، ولم يتلقه على أيدى القُرَّاء المجيدين ، يقرؤه عليهم سورة سورة ، بل آية آية ، يُصوِّبونه إذا أخطأ ، ويُقوِّمونه إذا اعوج ، فى نطق كلمة ، أو مخرج حرف ، أو غنَّة أو مدَّة ، أو إدغام أو إخفاء ، أو إظهار أو إقلاب ، أو غير ذلك مما يعرفه قُرَّاء القرآن .

وسنذكر بعد ذلك رحلة كليم الله موسى عليه السلام ، لأخذ العلم مشافهة من عبد الله الذى آتاه رحمة من عنده ، وعلَّمه من لدُنْه علماً ، والمعروف باسم الخضر عليه السلام .

* *

● فضل الكلب المعلَّم على غيره :

ومن لطائف المعانى التى أشار إليها القرآن : أن التعلم يرفع من قدر المتعلم ، ويعلى من شأنه ، إنساناً كان أو حيواناً ، حتى رأينا الكلب المعلَّم - فيما ذكره القرآن - يؤكل ما صاده ، ويُعتبر طعاماً حلالاً ، لأنه لم يصده لنفسه ، إنما صاده لصاحبه الذى علَّمه ، وبتعبير القرآن : إنه لم يمسك الصيد على نفسه ، إنما أمسكه على صاحبه ، وهذه هى ميزة الكلب المعلَّم على غيره .

يقول القرآن فى ذلك : ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ

OBEIKAN.COM

الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ ، فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ ﴾ (١) .

وإذا كان هذا شأن الكلب إذا تعلَّم شيئاً وأتقنه ، ومثله الطائر ، مثل الصقر ، الذى يُعلَّم الصيد ، فيُشترى بمئات الألوف ، كما نسمع ذلك فى منطقة الخليج العربى ، فما بالكم بالإنسان إذا تعلَّم علماً نافعاً ، أو صنعة يحتاج إليها الناس ، كم يعلو قدره ، وتغلو قيمته ؟!

يقول الشاعر :

تعلَّم فليس المـــرء يولد عـــــالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل !

* *

● طلب الزيادة فى العلم :

ومن أدب التعلم كما يهدى إليه القرآن : ألا يقف المتعلم عند حد معيَّن من المعرفة ، ثم يقول : حسبى هذا لا أزيد عليه . فإن العلم بحر لا ساحل له ، ولا قرار له ، ومهما اغترف الإنسان منه فسيظل فى حاجة إلى المزيد ، ولا يمكن أن يصل إلى درجة « التشبع » المطلق . وفى هذا قال الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ (٢) . ولم يرد فى القرآن كله أمر آخر للرسول الكريم بطلب الزيادة منه ، غير العلم ، وهذا دليل على فضيلة العلم ومزيته على ما سواه .

ولأجل هذا جاء عن النبى ﷺ : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب دنيا » (٣) .

---

(١) المائدة : ٤ (٢) طه : ١١٤

(٣) أورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » عن ابن مسعود وقال : رواه الطبرانى فى « الكبير » ، وفيه أبو بكر الداهرى ، وهو ضعيف ، كما رواه الطبرانى فى « الكبير » =

OBEIKAN.COM

وكان سَلَف الأُمة يطلبون الزيادة فى العلم ، ولا يتوقفون عن طلبه ، وإن بلغوا من السن ما بلغوا ، أو ارتقوا إلى أعلى مراتب العلم فى نظر الناس ، بل هم كلما ارتقوا فى درجات سلّم العلم شعروا بأنهم لا زال ينقصهم الكثير ، فازدادوا له طلباً ، وعليه حرصاً .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

كلما أدَّبنى الدهـــر أرانى نقص عقـــلى !

أو أرانى ازددت علماً زادنى علماً بجـــهلى !

سُئل أبو عمرو بن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : ما دام تحسن به الحياة .

وقيل لعبد الله بن المبارك : إلى متى تطلب العلم ؟ قال : حتى الممات إن شاء الله .

وقيل له ذلك مرة أُخرى ، فقال : لعل الكلمة التى تنفعنى لم أكتبها بعد !

وسُئل سفيان بن عيينة : مَن أحوج الناس إلى طلب العلم ؟ قال : أعلمهم ؛ لأن الخطأ منه أقبح !

وقيل للمأمون : أيحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ فقال : إن كان الجهل يعيبه فالتعلم يحسن به !

وقال ابن أبى غسان : لا تزال عالماً ما كنت متعلماً ، فإذا استغنيتَ كنت جاهلاً !

= و« الأوسط » ، والبزار عن ابن عباس ، وفيه ليث بن أبى سليم ، وهو ضعيف (١/ ١٣٥) ، ورواه أيضاً أبو خيثمة فى « العلم » ، ورواه ابن عدى أيضاً عن أنس ، وذكره الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » وزيادته (٦٦٢٤) ولعله صحَّحه بمجموع طرقه !

OBEIKAN.COM

وقال قتادة : لو كان أحد يكتفى من العلم بشىء ، لاكتفى موسى عليه السلام ، ولكن قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ (١) ، (٢) .

* *

● **سؤال أهل الذِكر والخبرة :**

ومن الأدبيات القرآنية المهمة فى مجال العلم : وجوب الرجوع إلى أهل الخبرة فى كل علم وفن ، وسؤال أهل الذكر فى كل موضوع ، فهم الذين يستطيعون أن يحلوا العقد ، ويعالجوا العضل من المسائل ، والعويص من القضايا .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ومثل ذلك قوله تعالى لرسوله : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٤) ، فالخبير هو الذى يجيب بعلم إذا سُئل ، ويقول : لا أدرى فيما يجهل .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٥) .

ويقول جَلَّ شأنه : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (٦) .

فلا يجوز أن نترك كل الأُمور فوضى ، يدخل فيها كل مَن هبَّ ودبَّ ، وخصوصاً ما يتعلق بالأمن والخوف ، أو ما يتعلق بأمن الجماعة أو الأمن القومى ، فهذا يجب أن يرد إلى أهله ، وذوى الشأن فيه ، العارفين بدخائله ، القادرين على استنباط الحكم المناسب بعقولهم الذكية .

وقد أدخل كثير من أئمة مفسِّرى السَّلَف والخَلَف : العلماء فى ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ ﴾

---

(١) الكهف : ٦٦

(٢) ذكر هذه الآثار كلها وغيرها الحافظ ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم » فى باب « الحض على استدامة الطلب والصبر على اللأواء والنَصَب » : ١/ ٩٥ - ١٠٠

(٣) النحل : ٤٣ ، والأنبياء : ٧

(٤) الفرقان : ٥٩ (٥) فاطر : ١٤ (٦) النساء : ٨٣

الذين أمر الله تعالى بطاعتهم ، كما أمر بطاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ . يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) .

فإذا كان هناك مَن فسَّر ﴿ أُوْلِى الأَمْرِ ﴾ بالأمراء ، فهناك مَن فسَّرهم بالعلماء ، على أن أُولى الأمر لا تجب طاعتهم حقاً إلا إذا كانوا هم علماء أو كانوا فى طاعة العلماء ، ولهذا قال مَن قال من رجال السَّلَف : الملوك حُكَّام على الناس ، والعلماء حُكَّام على الملوك ، وهو ما عبَّر عنه الشاعر بقوله :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر يحـكم العلماء !

وستظل الأُمة بخير ما دام فيها من أهل الذكر والخبرة مَن إذا سُئِل أجاب بالصواب ، وإذا استُفتى أفتى بعلم ، وإذا استُقضى قضى بحق ، وما دام الناس يتوجهون إلى هؤلاء يسألونهم فى المُلمّات ، ويستفتونهم فى المشكلات .

أما إذا اختفى هذا الصنف من الأُمة ، فهذا هو الخطر الماحق الذى يهدد كيانها المعنوى ، حين تستفتى الأُمة الجُهَّال ، فيفتونها بغير علم ، فيُعسِّرون عليها اليسير ، ويُصعِّبون عليها السهل ، ويُحرِّمون عليها الحلال ، أو يحلون لها الحرام ، ويُسقطون عنها الفرائض ، أو يُلزمونها بما لم يُلزمها به الله ، وهذا ما حذَّر منه رسول الله ﷺ حين قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً ، فَسُئِلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلُّوا وأضلُّوا » (٢) .

إن فتوى الجاهل قد تُفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، قد تقتل مَن يستحق الحياة ، وقد تخرب ما يستحق العمران ، وحسبنا مثلاً على ذلك فتوى أُولئك

---

(١) النساء : ٥٩

(٢) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان .

الذين أفتوا - فى زمن رسول الله ﷺ - الرجل الذى أصابته جنابة وبه جراحة ، أن يغتسل من جنابته برغم جراحته ، فاشتد عليه الجرح وتفاقم أثره حتى مات ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : « قتلوه قتلهم الله ! هلا سألوا إذ لم يعلموا ؟ إنما شفاء العِىّ السؤال ، إنما كان يكفيه أن يعصب على جرحه ويتيمم » (١) .

* *

● **حُسْن السؤال :**

وإذا كان المسلم مُطالَباً أن يسأل أهل الذكر والخبرة فى كل علم وفن ، فهو مطالَب أيضاً أن يحسن السؤال فيما يسأل عنه ، فيسأل عما ينفعه فى دينه أو دنياه ، ولا يسأل فيما لا فائدة من ورائه ، ويسأل فى الوقت المناسب ، وفى الحال المناسب ، ولا يكثر من الأسئلة فيما لا طائل تحته .

وقد ذكر القرآن لنا قصة بنى إسرائيل ، وكيف قال لهم نبيهم موسى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ (٢) . وكان يمكنهم أن يذهبوا إلى أى بقرة فيذبحوها ، فتجزئهم . ولكنهم غلبهم اللجاج فسألوا وسألوا وسألوا : ما هى ؟ ما لونها ؟ ثم ما هى مرة أُخرى ؟؟ وكل سؤال يوجب عليهم تكليفاً كانوا فى سعة منه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِه إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ، قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ، قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ

---

(١) رواه أبو داود عن جابر ، كما فى « صحيح الجامع الصغير » (٤٣٦٢) ، ورواه هو وأحمد والحاكم باختصار عن ابن عباس (المرجع نفسه : ٤٣٦٣) .

(٢) البقرة : ٦٧

النَّاظِرِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ، قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسيره : « أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل ، وكثرة سؤالهم لرسولهم ، ولهذا لما ضيَّقوا على أنفسهم ضيَّق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد : شدَّدوا فشُدِّد عليهم » (٢) .

وقد ذكر القرآن أنواعاً من الأسئلة بعضها عن المشركين مثل السؤال عن الساعة : ﴿ يسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ (٣) ، ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ (٤) ، وقد تكرر فى القرآن ، وهو سؤال لا ثمرة له ، لذا كان جوابه : ﴿ إِنَّمَا علْمُهَا عِنْدَ اللهِ ﴾ . ومثل السؤال عن الجبال : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ (٥) .

وبعضها من اليهود ، أو عن طريق دلالتهم لقريش ، مثل السؤال عن الروح ، وعن ذى القرنين .

أما معظم الأسئلة فهى من المؤمنين ، أى من الصحابة رضى الله عنهم ، ويلاحظ أنها أسئلة قليلة محدودة ، وأنها كلها أسئلة عملية متصلة بحياة الناس ، ممتزجة بواقعهم ، مثل سؤالهم عن الأَهِلَّة ، وسؤالهم : ماذا ينفقون ؟ وقد جاء هذا السؤال مرتين فى سورة البقرة ، ودلَّ الجواب أن المراد فى إحدى الآيتين هو مقدار الإنفاق ، ودلَّ الآخر أن المراد به : فيم يكون الإنفاق ؟

---

(١) البقرة : ٦٧ - ٧١ (٢) تفسير ابن كثير : ١/ ١١٠ - طبعة الحلبى .

(٣) الأحزاب : ٦٣ (٤) الأعراف : ١٨٧ (٥) طه : ١٠٥

OBEIKAN.COM

ومثل السؤال عن الخمر والميسر ، والسؤال عن اليتامى ، والسؤال عن المحيض ، والسؤال عن القتال فى الشهر الحرام ، وسؤالهم : ماذا أُحِلّ لهم ؟ وسؤالهم عن الأنفال ، واستفتائهم فى النساء ، وفى الكلالة ، فكلها أحد عشر سؤالاً ، تسعة منها بصيغة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ ، واثنان بصيغة : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ .

قال ابن عباس : « ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ ، ما سألوه إلّا عن ثلاث عشرة مسألة ، كلهن فى القرآن ، ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم » (١) .

والذى يبدو لى أن أسئلة الصحابة : أحد عشر ، وليست ثلاثة عشر ؛ سبعة منها فى البقرة ، وواحدة فى المائدة ، وأُخرى فى أول الأنفال . كلها بصيغة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ ، واثنتان فى النساء بصيغة : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ ، وقد يُضاف إليها قوله تعالى فى البقرة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ (٢) .

ولا أدرى وجه جعلها ثلاثة عشر من ابن عباس ، فلعله - رضى الله عنه - اعتبر من أسئلتهم أحد الأسئلة الأُخرى التى اعتبرناها من المشركين أو من اليهود أو بتوجيههم مثل السؤال عن الروح أو عن ذى القرنين .

والمهم فى قول ابن عباس ثناؤه على الصحابة بقلة أسئلتهم من ناحية ، وسؤالهم عما ينفعهم من ناحية أُخرى ، فلم يشغلوا أنفسهم بالمسائل التافهة ، والتعمقات التى لا طائل من ورائها ، والسؤال عما يوجب العنت والحَرَج فى الدين .

وهذا إنما هو باعتبار الغالب على الصحابة ، ولا ينافى هذا سؤال بعضهم : مَن أبى ؟ ، وأين أبى ؟ وما روى فى التفسير أنهم سألوا عن الهلال : ما باله يبدو رقيقاً كالخيط ، ثم لا يزال ينمو حتى يصير بدراً ، ثم لا يزال ينقص إلى أن يعود كما كان ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ، قُلْ هِىَ

---

(١) انظر : الموافقات للشاطبى : ٤/٣١٤ ، ٣١٥ (٢) البقرة : ١٨٦

مَوَاقيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ (١) .

فالملاحَظ أنه أجابهم هنا بمنافع الأهِلَّة فى الدين والدنيا ، ولم يجبهم عن سؤالهم ، لأن تعريفهم بحقيقة ما يرونه من تغير فى صورة الهلال يحتاج إلى علوم ومعارف لم يتأهَّلوا لها بعد ، فعدل عن الإجابة عن حقيقة سؤالهم إلى الإجابة عن الفائدة من الأهِلَّة ، وأنها مواقيت للناس فى عباداتهم ومعاملاتهم ، وخصوصاً الحج .

ثم نبَّههم على فعل لا معنى له كانوا يرتكبونه فى الجاهلية ، إذا قدم الرجل من الحج : أن يدخل بيته من ظهره لا من بابه ، وبيَّن لهم أن هذا ليس من البر فى قليل ولا كثير ، وإنما البر هو بر أهل التقوى .

وهناك تفسير يتجه بهذه الفقرة من الآية اتجاهاً آخر لعله أقرب ، وهو أنهم فى سؤالهم عن تغير الهلال ، عكسوا فى سؤالهم ، فسألوا عما لا يعنيهم ولا يفيدهم ، فهم بمثابة مَن يأتى البيوت من ظهورها ، وكان الأَوْلى أن يأتوها من أبوابها ، فيسألوا عما يعنيهم وينفعهم فى أمر دينهم ودنياهم (٢) .

* * *

(١) البقرة : ١٨٩ (٢) انظر : نظم الدرر للبقاعى : ٣/٩٩ ، ١٠٠

OBEIKAN.COM

الرحلة فى طلب العلم

من أدبيات العلم فى القرآن : أن العلم ينبغى أن يُطلب من مظانه ، ويُؤخذ من منابعه الصافية ، ويُرحل إليه ، ليستقى من أهله ، وإن بعدت الشقة ، وأرهقت الرحلة ، فكل تعب فى سبيل العلم يهون ، وكل مسافة وإن طالت فهى قصيرة .

قصَّ علينا القرآن قصة طالب علم صمم على أن يجتاز الفيافى ، ويقطع المسافات حتى يدركه النَصَب ، من أجل لقاء رجل عرف أن لديه علماً ليس عنده .

هذا الطالب هو نبى الله موسى بن عمران ، أحد أُولى العزم من الرسل ، الذى اصطفاه الله برسالاته ، وكلَّمه تكليماً ، وأنزل عليه التوراة ، فيها موعظة وتفصيل لكل شىء .

ولكن الله تعالى أعلمه أنَّ هناك عبداً من عباده عنده من العلم ما ليس عند موسى ، فلم يهنأ له بال ، ولم يستقر له جنب ، حتى يصل إليه ويلقاه ويصحبه ويتعلم منه . وذلك هو عبد الله المعروف باسم « الخضر » عليه السلام ، الذى ذكر الله قصة موسى معه فى سورة الكهف ، وأنه يمكن أن يلقاه فى مجمع البحرين ، وعرَّفه علامة تدل على مكانه .

يقص علينا القرآن قصة رحلة موسى عليه السلام الشاقة المجهدة ، مع فتاه وصاحبه يوشع بن نون ، كما ذكرته الروايات ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا

QURTUBAH.COM

قَصَصاً * فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ (١) .

و« مجمع البحرين » اختلف المفسِّرون فيه اختلافاً كثيراً .

فذهب الإمام برهان الدين البقاعى فى تفسيره « نظم الدرر » إلى ترجيح أنه ملتقى النيل بالبحر الأبيض المتوسط عند مدينة دمياط أو مدينة رشيد ، واستدل لذلك بما جاء فى القصة - فى رواية البخارى - أن عصفوراً نقر نقرة فى الماء . . .

والظاهر : أن العصفور نقر فى الماء ليشرب منه ، فهذا دليل على أنه ماء عذب ، وهو ماء نهر النيل .

ولكن يعكر على هذا القول : أن موسى كان قد خرج من مصر ، واتجه إلى سيناء ، فيبعد أن يعود إلى مصر مرة أُخرى ، وخصوصاً بعد أن حكم الله على قومه بالتيه أربعين سنة فى هذه الأرض ، وقد توفى بها موسى عليه السلام .

وقال بعض مفسِّرى السَّلَف : المراد بمجمع البحرين : ملتقى بحرى فارس مما يلى المشرق وبحر الروم مما يلى الغرب ، ولعل المراد : مكان يقرب فيه التقاؤهما ، وهما لا يلتقيان إلا فى البحر المحيط ، وهما شعبتان منه ، كما فى « روح المعانى » .

وقيل : ملتقى البحر الأبيض والمحيط (الأطلسى) عند طنجة بالمغرب ، وهذا لا يمكن الوصول إليه إلا بعد شهور بل سنين .

وقال صاحب « الظلال » رحمه الله : « الأرجح - والله أعلم - أنه مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم ، أى البحر الأبيض

---

(١) الكهف : ٦٠ - ٦٦

OBEIKAN.COM

والبحر الأحمر . . ومجمعهما : مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرَّة وبحيرة التمساح .

أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر (وهذا قريب معقول لمن يكون فى سيناء) ، فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر . . وعلى أى ، فقد تركها القرآن مجملة ، فنكتفى بهذه الإشارة » (١) .

والظاهر من سياق القصة : أن موسى وفتاه قطعا هذه المسافات الطويلة مشياً على أقدامهما ، إذ لم يشر السياق إلى مطية أو أكثر معهما من بعير أو حمار .

وكان منشأ عزيمة موسى عليه السلام على هذه الرحلة المضنية : ما رواه الشيخان من حديث ابن عباس عن أُبَىّ بن كعب : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن موسى عليه السلام قام خطيباً فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ! فعتب الله عليه ؛ إذ لم يرد العلم إليه سبحانه ، فأوحى الله تعالى إليه : أن عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . . . » الحديث (٢) .

وفى رواية أُخرى عن أُبَىّ أيضاً : أن موسى سأل ربه فقال : أى رَبِّ ، إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى ، فدلنى عليه ، فقال له : نعم ، فى عبادى مَن هو أعلم منك . . ثم نعت له مكانه ، وأذن له فى لقيّه .

وهذه القصة - كما ذكرها القرآن - لا تُعرف عند اليهود ، ولم تُذكر فى كتابهم ، ولهذا ينكرونها ، ويرون أنه لا ينبغى أن يتعلم نبى من غير نبى ، وحتى مع التسليم بأن هذا العبد الصالح - الخضر - نبى يُوحَى إليه ،

---

(١) فى ظلال القرآن : ١٥/١٠٣ - طبعة الحلبى - الأولى .

(٢) الحديث متفق عليه ، انظر « اللؤلؤ والمرجان » (١٥٣٩) .

لا تسمح أنفسهم بالقول بتعلم نبيهم الأفضل درجة ، والأرفع مقاماً ، ممن هو دونه فى الفضل والمنزلة .

وأجاب علماء تفسير القرآن بأن هذا الموقف من أحبار اليهود لا يساعده العقل ولا النقل ، وليس هو إلَّا كالحمية الجاهلية ، إذ لا يبعد عقلاً تعلم الأفضل الأعلم شيئاً ليس عنده ممن هو دونه فى الفضل والعلم ، ومن الأمثال المشهورة : قد يوجد فى الأسقاط ما لا يوجد فى الأسفاط .

وقالوا : قد يوجد فى المفضول ما لا يوجد فى الفاضل .

وقال بعضهم : لا مانع من أن يكون الله تعالى قد أخفى علم المسائل التى تضمنتها القصة عن موسى عليه السلام - على مزيد علمه وفضله - لحكمة يعلمها ، ولا يقدح ذلك فى كونه أفضل وأعلم من الخضر عليه السلام فيما عدا هذه الأُمور (١) .

وفى حديث الصحيحين فى القصة : أن الخضر عليه السلام قال لموسى صلوات الله عليه : « يا موسى ؛ إنى على علم من علم الله علَّمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علَّمكه لا أعلمه » (٢) .

وإنما ينمو العلم ويثمر ويزدهر إذا ضم العالِم علم الآخرين إلى علمه ، ولم يكتف بما عنده ، أو يحقر ما عند غيره ، أو يستنكف أن يتعلم منه ويأخذ عنه ، وإن كان هو دونه . فالحكمة ضالة المؤمن أَنَّى وجدها فهو أحق بها . حتى إنه ليأخذ الحكمة من الكافر ، وحتى إنه ليتعلم من الحيوان والطير كالهدهد والغراب .

ومما له دلالة هنا : أن القرآن عبَّر عن الخروج فى طلب العلم والتفقه فى

---

(١) انظر : تفسير « روح المعانى » للألوسى : ١٥/ ٣١٠ ، ٣١١

(٢) اللؤلؤ والمرجان - المرجع السابق .

OBEIKAN.COM

الدين بكلمة « النفير » ، وهى الكلمة المستخدَمة فى الخروج للجهاد فى سبيل الله .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ، فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١) . فهذا - كما قال حمَّاد بن زيد - فى كل مَن رحل فى طلب العلم والفقه ، ورجع به إلى مَن وراءه ، فعلَّمه إياه (٢) .

وعن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ (٣) قال : هم طلبة الحديث (٤) . ففسَّر السياحة بمعنى الضرب فى الأرض للعبادة والجهاد ، ومنه طلب علم القرآن والحديث ، والفقه فى الدين .

وأكدت السُّنَّة النبوية هذا المعنى ، فقد جاء فى الحديث : « مَن خرج فى طلب العلم ، فهو فى سبيل الله حتى يرجع » (٥) .

ولم يعرف التاريخ أُمة من الأُمم رحلت فى سبيل العلم ، وضربت فى ذلك أروع الأمثال ، وخلَّدت فى ذلك وقائع تُذكر فتُشكر ، مثل الأُمة الإسلامية ، ولا سيما علماء الحديث .

وقد ألَّف العلَّامة الخطيب البغدادى كتاباً خاصاً سماه « الرحلة فى طلب الحديث » ، ذكر فيه فضل العلم ، والرحلة فى طلبه ، ورحلات الصحابة إلى

---

(١) التوبة : ١٢٢

(٢) رواه الخطيب فى « الرحلة فى طلب الحديث » ص ٨٧ ، بتحقيق الدكتور نور الدين عتر .

(٣) التوبة : ١١٢ (٤) المصدر السابق ص ٨٧ ، ٨٨

(٥) رواه الترمذى فى « العلم » عن أنس (٢٦٤٩) ، وقال : حسن غريب ، ولم يرفعه بعضهم ، وعزاه فى « الجامع الصغير » إلى الضياء فى المختارة ، وفى إسناده خالد بن يزيد اللؤلؤى ، قال بعضهم : لا بأس به ، وقال العقيلى : لا يُتابَع على كثير من حديثه ، وذكر له هذا الحديث . الفيض : ٦/ ١٢٤ ، وانظر ترجمته فى « تهذيب الكمال » : ٨/ ١٦٦٧

OBEIKAN.COM

النبى ﷺ للأخذ عنه والتعلم منه ، ورحلات الصحابة بعضهم إلى بعض للاستفادة والتلقى المباشر ، ورحلات التابعين إلى الصحابة للأخذ والتعلم ، ورحلات التابعين بعضهم إلى بعض ، ورحلات الأئمة الحُفَّاظ فى العصور المختلفة وما قاسَوْا فيها من مشاق السفر وصعوباته فى تلك الأزمان .

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله قال : بلغنى عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله لم أسمعه منه . قال : فابتعتُ بعيراً فشددتُ عليه رَحْلى ، فسرتُ إليه شهراً حتى أتيتُ الشام ، فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصارى . قال : فأرسلتُ إليه أن جابراً على الباب . قال : فرجع إلىّ الرسول فقال : جابر بن عبد الله ؟ فقلت : نعم . فرجع الرسول إليه . . فخرج إلىَّ فاعتنقنى واعتنقته . قال : قلت : حديث بلغنى أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى المظالم لم أسمعه ، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه . . وسمع منه الحديث (١) .

وذكر الحافظ : أن أبا داود روى من طريق عبد الله بن بريدة : أن رجلاً من الصحابة رحل إلى فضالة بن عبيد - وهو بمصر - فى حديث !

وروى الخطيب عن عبيد الله بن عدى قال : بلغنى حديث عن على ، فخفت إن مات ألَّا أجده عند غيره ، فرحلت حتى قدمت عليه العراق !

قال الحافظ : وتتبع ذلك يكثر .

وقال ابن مسعود : لو أعلم أحد أعلم بكتاب الله منى لرحلتُ إليه .

---

(١) الحديث علَّقه البخارى فى « صحيحه » بصيغة الجزم ، باب : الخروج فى طلب العلم - البخارى مع الفتح : ١/ ١٧٣ . قال الحافظ : أخرجه المصنف فى الأدب المفرد ، وأحمد وأبو يعلى فى مسنديهما من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل ، وله طريق أخرى أخرجها الطبرانى فى مسند الشاميين ، وتمام فى « فوائده » وإسناده صالح ، وله طريق ثالثة أخرجها الخطيب فى« الرحلة » ، وفى إسناده ضعف .

OBEIKAN.COM

وقال سعيد بن المسيب : إن كنت لأرحل الأيام واللَّيالى فى طلب الحديث الواحد .

وقال الشعبى بعد أن روى حديثاً لرجل : خذها بغير شىء ، وإن كان الرجل ليرحل فيما دونها إلى المدينة .

وأخرج الخطيب عن أبى العالية قال : كنا نسمع عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا نرضى حتى خرجنا إليهم فسمعنا منهم .

وقيل لأحمد بن حنبل : رجل يطلب العلم يلزم رجلاً عنده علم كثير أو يرحل ؟ قال : يرحل ، يكتب عن علماء الأمصار ، فيشافه الناس ويتعلم منهم .

وقال الشعبى : لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره ضاع (١) .

وقد اشتهر بين المسلمين هذا القول : « اطلبوا العلم ولو بالصين » حتى رفعه بعضهم حديثاً إلى النبى ﷺ . وما هو بحديث ، إنما هو كلمة إسلامية مأثورة عن سَلَف الأُمة ، ومعناها صحيح بالإجماع . وإنما ذكروا « الصين » خاصة ؛ لأنها كانت أبعد ديار الحضارة المعروفة عن جزيرة العرب ، فهى أبعد من مصر ، ومن فارس ، ومن الروم ، ومن الهند . . . ومن كل بلد يمكن أن يوجد فيه علم يُطلب .

* * *

(١) انظر : فتح البارى : ١/ ١٧٥ ، وجامع بيان العلم : ١/ ٩٢ - ٩٥ ، ومجمع الزوائد : ١/ ١٣٣ - ١٣٥ ، والرحلة فى طلب الحديث للخطيب .

ممن نتعلَّم ؟

ومن توجيهات القرآن فى مجال العلم والتعلم : أن الإنسان ينبغى أن يتعلم من كل مَن لديه علم ينفعه فى دينه أو فى دنياه ، وإن كان أصغر منه سناً ، أو أدنى منه درجة ، أو أقل منه مالاً أو جاهاً .

وقد رأينا موسى - وهو مَن هو منزلة بين رُسُل الله - يتعلم من الخضر عليه السلام ، وهو أدنى منه يقيناً ، حتى إنهم اختلفوا : أهو نبى أم لا ؟ وحتى لو رجحنا أنه نبى - وهو الراجح فعلاً - ولكن الأنبياء ليسوا فى درجة واحدة ، كما هو معلوم .

بل رأينا إبراهيم الخليل عليه السلام يقول لأبيه فى حواره الخصب له : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ (١) . فدلَّ ذلك على أن الجاهل يجب أن يتبع العالِم ، ليقبس منه ، ويأخذ عنه ، وإن كان العالِم هو الابن ، والمتعلم هو الأب .

بل رأينا موقف سليمان ، حين تفقَّد الطير ، فلم يجد الهدهد ، فقال : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

هنا نرى طائر الهدهد قد علَّم سليمان عليه السلام ما لم يكن يعلم من أمر سبأ وملكتهم ، ولم يجد سليمان حرجاً أن يأخذ هذه المعلومة الهامة من هذا الهدهد .

ولقد حكى عن بعض العلماء : أنه سُئل عن مسألة فقال : لا أعلمها ، فقال أحد تلامذته : أنا أعلم هذه المسألة . فغضب الأستاذ وهَمَّ به ، فقال له التلميذ : أيها الأستاذ ؛ لستَ أعلم من سليمان بن داود ، ولو بلغتَ من العلم

---

(١) مريم : ٤٣ (٢) النمل : ٢١ - ٢٣

OBEIKANDL.COM

ما بلغت ، ولستُ أنا أجهل من الهدهد ، وقد قال لسليمان نبى الله : أحطت بما لم تحط به ، فلم يضق سليمان به ذرعاً ، واستفاد من علمه . فطاب الأستاذ نفساً ، وسُرَّ لكلام تلميذه .

وكما أن الانسان - ممثلاً فى سليمان - تعلَّم من هدهد ، فإننا نجد فى القرآن أيضاً أن الإنسان من قديم الزمان تعلَّم من غراب !

ففى قصة ابنى آدم التى قصَّها الله علينا بالحق فى سورة المائدة : ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) . ولكن هذه الكلمات المضيئة المخلصة من ابن آدم الخيِّر الطيب لم تلامس قلب ابن آدم الخبيث الشرير ، ولم تهز فيه وتراً : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى ، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (٢) .

يبدو من السياق أن الحادث كان فى فجر تاريخ البَشرية ، حيث كان هذا أول قتيل ، بل أول ميت ، فما كان عندهم علم بأن الموتى يُدفنون . ولهذا جاء فى الصحيح : « لا تُقتل نفساً ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها ؛ لأنه أول مَن سنَّ القتل » (٣) .

وهكذا تعلَّم الإنسان من الغراب مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وهى : كيف تُوارَى جثة الميت إذا مات ؟ وهو أمر حار فيه الإنسان العاقل ، حتى هداه الغراب إلى الحل الفِطرى ، وما كان أقربه وأروعه من حل !

* *

---

(١) المائدة : ٢٧ ، ٢٨ (٢) المائدة : ٣٠ ، ٣١

(٣) متفق عليه عن ابن مسعود - اللؤلؤ والمرجان (١٠٩٢) .

• أدب المتعلم مع المعلِّم

ومما ذكره القرآن الكريم فى قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، نعرف كيف يكون أدب المتعلم مع الأستاذ المعلِّم .

فمن المعلوم : أن موسى هو أفضل من الخضر ، وأعلى مقاماً ، وهو الذى قال الله له : ﴿ إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) . فقوله : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ ﴾ يعنى به موسى عليه السلام . كما قال فى سورة أُخرى : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (٣) . ولهذا يسمى موسى « كليم الله » .

ومع هذا نجد كليم الله موسى حين رحل ليطلب العلم عند الخضر ، ويتعلم منه ما لم يكن يعلم ، كان فى غاية الأدب معه ، وغاية التواضع وخفض الجناح .

فهو يبدأ الحديث معه بهذا العرض المهذب ، بصيغة السؤال والاستفهام : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ ؟ (٤) .

فانظر كيف لم يقل له : أريد أن أتبعك ، حتى لا يفرض نفسه عليه ، بل قال له بهذا التلطف : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ؟ كأنه يقول له : أتأذن لى أو أتسمح لى أن أتبعك ؟

وانظر إلى العبارة ودلالتها ، إذ لم يقل : هل أرافقك ؟ أو أصحبك ؟ . . . أو نحو ذلك من العبارات . بل اختار عبارة موحية معبِّرة عما يريد ، وهى : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ؟. المسألة إذن : اتباع واضح ، ليست ملازمة صاحب لصاحبه ،

---

(١) الأعراف : ١٤٤ (٢) البقرة : ٢٥٣

(٣) النساء : ١٦٤ (٤) الكهف : ٦٦

OBEIKANDI.COM

ولا صديق لصديقه ، أو ند لنده ، بل هى ملازمة تابع لمتبوعه : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ ؟ وهو اعتراف صريح بأن لدى المعلِّم من الرشد ما ليس لديه .

وبيَّن له الخضر صعوبة الأمر . حين قال له بصراحة : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ (١) . فالمرء لا طاقة له على الصبر على أمر لا يعرف سره ، ولهذا قيل : إذا عُرِف السبب بطل العجب ! فأما ما لا يعرف الإنسان سببه ، ولا يدرك علَّته ولا سره ، فمن الصعب أن يصبر عليه ، وهو ما ذكَّر به الخضر المعلِّم تلميذه موسى من أول الأمر ، حتى يكون على بيِّنة من أمره .

ولكن موسى كان حريصاً على أن يتعلم ، مُصِرّاً على أن يستفيد ، فلم يفتّ كلام الخضر فى عضده ، ولم يثن له عزماً ، بل قال : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْراً ﴾ (٢) .

وهنا نجد أدباً آخر من أدب التعلم ، وهو الصبر ، الذى يُستعان فيه بالله تعالى ، والطاعة لأمر المعلم . فيما أحب وكره ، فلا يعصى له أمراً .

وهنا شارطه الخضر عليهما السلام مشارطة واضحة وحاسمة ، فقد قيل : إن ما أوله شرط آخره نور ووضوح . قال : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْئَلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ (٣) .

وسكت موسى سكوت المقر بهذا الشرط ، المذعن له ، والمؤمنون عند شروطهم . ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْراً * فَانطَلَقَا

---

(١) الكهف : ٦٧ - ٦٨ (٢) الكهف : ٦٩ (٣) الكهف : ٧٠

حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ (١) .

يقول الفخر الرازى : « اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللُّطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر .

فأحدها : أنه جعل نفسه تبعاً له لأنه قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ .

وثانيها : أن أستأذن فى إثبات هذا التبعية ، فإنه قال : هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعاً لك ، وهذا مبالغة عظيمة فى التواضع .

وثالثها : أنه قال : ﴿ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم .

ورابعها : أنه قال : ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ وصيغة « من » للتبعيض ، فطلب منه تعليم بعض ما علَّمه الله ، وهذا أيضاً مشعر بالتواضع كأنه يقول له :

---

(١) الكهف : ٧١ - ٨٢

لا أطلب منك أن تجعلنى مساوياً فى العلم لك ، بل أطلب منك أن تعطينى جزءاً من أجزاء علمك ، كما يطلب الفقير من الغنى أن يدفع إليه جزءاً من أجزاء ماله .

وخامسها : أن قوله : ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ اعتراف بأن الله علَّمه ذلك العلم .

وسادسها : أن قوله ﴿ رُشْداً ﴾ طلب منه للإرشاد والهداية ، والإرشاد هو الأمر الذى لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال .

وسابعها : أن قوله : ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به ، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علىّ عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليك فى هذا التعليم . ولهذا المعنى قيل : أنا عبد مَن تعلَّمتُ منه حرفاً .

وثامنها : أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير . . . .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ يدل على أنه يأتى بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتياً بها . وهذا يدل على أن المتعلِّم يجب عليه فى أول الأمر التسليم ، وترك المنازعة والاعتراض .

وتاسعها : أن قوله : ﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقاً فى جميع الأمور غير مقيَّد بشىء دون شىء .

وعاشرها : أنه ثبت بالأخبار أن الخضر عرف أولاً أنه نبى بنى إسرائيل ، وأنه هو موسى صاحب التوراة ، وهو الرجل الذى كلَّمه الله عَزَّ وجَلَّ من غير واسطة ، وخصَّه بالمعجزات القاهرة الباهرة ، ثم إنه - عليه السلام - مع هذه المناصب الرفيعة ، والدرجات العالية الشريفة ، أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع ، وذلك يدل على كونه - عليه السلام - آتياً فى طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة ، وهذا هو اللائق به ؛ لأن كل مَن كانت إحاطته بالعلوم أكثر ، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر ، فكان طلبه لها أشد ، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد .

والحادى عشر : أنه قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أن تُعَلِّمَنِ ﴾ فأثبت كونه تبعاً له أولاً ، ثم طلب ثانياً أن يُعلِّمه ، وهذا منه ابتداء بالخدمة ، ثم فى المرتبة الثانية طلب منه التعليم .

والثانى عشر : أنه قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً ، كأن قال : لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ، ولا غرض لى إلا طلب العلم » [1] .

* * *

(١) تفسير الفخر الرازى : ٢١/١٥١

OBEIKAN.COM

وسائل تحصيل العلم

وإذا كان طلب العلم فريضة - عَيْنية أو كفائية - وكان الازدياد مطلوباً طلب إيجاب ، أو طلب استحباب ، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ (١) ، فإن لتحصيل العلم وسائل أساسية ثلاثاً ، ذكرت فى أكثر من آية . وهى :

١ - السمع : وهو أساس العلم المنقول عن الوحى ، أو عن السابقين .

٢ - والبصر : وهو أساس العلم المادى القائم على الملاحظة والتجربة .

٣ - والفؤاد ، وهو أساس العلوم العقلية .

يقول تعالى فى سورة النحل ، وهى سورة النعم : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

فالإنسان يولد غفلاً من العلوم ، وإنما العلم بالتعلم ، والتعلم بأدواته التى منحها الله له ، وجعلها منافذه على العالَم من حوله : السمع والأبصار والأفئدة ، وقد اعتبر القرآن هذه الأدوات أو المنافذ فى أكثر من سورة من نعم الله على الإنسان ، التى يجب أن تُقابَل بالشكر ، وإن قلّ الشاكرون لها .

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

وفى سورة أُخرى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) طه : ١١٤ (٢) النحل : ٧٨

(٣) المؤمنون : ٧٨ (٤) الملك : ٢٣

OBEIKAN.COM

وفى وصايا الحكمة فى سورة الإسراء بيَّن سبحانه مسؤولية الإنسان عن هذه الأدوات المهمة فيقول : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (١) .

ولقد ذمَّ القرآن أبلغ الذم الذين يعطلون أدوات العلم بكفرهم وجحودهم بآيات الله عزَّ وجلَّ .

يقول تعالى فيمن أهلكهم من أهل الأحقاف : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ (٢) .

ويقول فى مقام آخر فى ذمِّ قوم اعتبرهم أضل من الأنعام : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٣) .

هؤلاء الذين جعلهم القرآن حطب جهنم ، قد خربوا الأجهزة التى أعطاهم الله إياها ، وعطلوا منفعتها ، فلم يستفيدوا بها ، ولم يوظفوها فيما خُلقت له ، فقد خُلق القلب ليعقل ويفقه ، وخُلقت العين لترى وتبصر . وخُلقت الأُذن لتسمع وتعى ، ولكن هؤلاء لم يفقهوا بقلوبهم ، ولم يبصروا بأعينهم ، ولم يسمعوا بآذانهم : آيات الله فى خلقه ، وسُنَنه فى كونه ، وأحكامه فى شرعه ، فهم كالذين وصفهم فى آيات أُخَر بقوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) ، وفى موضع آخر : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) الأحقاف : ٢٦ (٣) الأعراف : ١٧٩
(٤) البقرة : ١٨ (٥) البقرة : ١٧١

OBEIKAN.COM

الَّذينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) .

ولا عجب أن اعتبرهم القرآن كالأنعام التى لا تعى ولا تعقل ، بل هم أضل منها سبيلاً . وإنما كانوا أضل من الأنعام لأمرين :

الأول : أن الأنعام لم تُؤْتَ ما أُوتوا من المواهب والقدرات ، والمَلَكات العقلية والروحية ، التى رشحتهم للخلافة فى الأرض ، وأهَّلتهم لإنزال الكتب عليهم ، وإرسال الرُّسُل إليهم .

والثانى : أن الأنعام قامت بمهمتها التى خُلقت لها ، فهى تؤدى مهمة الركوب والحمل ، أو الدر والنسل ، ولم تقصر فى أدائها ، ولا تمردت عليها ، هل رأيتَ بقرة تمردت على أن تُحلب ؟ أو حماراً تمرد على أن يُركب ؟ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

ويلاحظ مَن يقرأ القرآن : أن القرآن حين يذكر هذه الأدوات الإدراكية فى الإنسان ، يُقدِّم السمع دائماً على البصر . فما السر فى هذا ؟

يبدو أن السمع أسبق من البصر استعمالاً فى حياة الإنسان ، فالمولود منذ ولادته يسمع الأصوات ويفزع من الصوت القوى ، ولكنه لا يرى إلا بعد أيام من ولادته ، ولأن السمع أهم فى التعلم والتعليم ، وأقوى رسوخاً فى ذاكرة الطفل ، ومن هنا عرفنا على مدار التاريخ نوابغ من المكفوفين ، ولم نر مثل ذلك فى الصم . بل لم يعرف العالَم تعليم الصم إلا فى عصرنا . وعندما ينام الإنسان يفقد الحس البصرى ، قبل أن يفقد الحس السمعى ، وهذا دليل على قوة الحس السمعى وتفوقه . ولأن بالسمع تُنَال سعادة الدنيا والآخرة ،

---

(١) الأنفال : ٢٢ ، ٢٣ (٢) يس : ٧١ - ٧٣

OBEIKAN.COM

فإنها إنما تتحقق بمتابعة الرُّسُل ، وقبول رسالاتهم ، وبالسمع عرف ذلك ، فإن مَن لا سمع له لا يعلم ما جاؤوا به ، ولذا تسمى علوم الشرع « العلوم السمعية » .

قال العلامة ابن القيم : « وأيضاً فإن السمع يُدرَك به أجل شيء وأفضله ، وهو كلام الله تعالى الذى فضله على الكلام كفضل الله على خلقه .

وأيضاً فإن العلوم إنما تُنَال بالتفاهم والتخاطب ، ولا يحصل ذلك إلا بالسمع .

وأيضاً فإن مدركه أعم من مدرك البصر ، فإنه يدرك الكليات والجزئيات ، والشاهد والغائب ، والموجود والمعدوم . والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهَدات ، والسمع يسمع كل علم ، فأين أحدهما من الآخر ؟ ولو فرضنا شخصين أحدهما يسمع كلام الرَّسُول ولا يرى شخصه ، والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لصممه ، هل كانا سواء ؟

وأيضاً ففاقد البصر إنما يفقد إدراك بعض الأُمور الجزئية المشاهَدة ، ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريباً ، وأما فاقد السمع ، فالذى فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولو تقريباً .

وأيضاً فإن ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع فى القرآن أكثر من ذمه لهم بعدم البصر ، بل إنما يذمهم بعدم البصر ، تبعاً لعدم العقل والسمع .

وأيضاً فإن الذى يورده السمع على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلال ولاسآمة ولا تعب ، مع كثرته وعظمه ، والذى يورده البصر عليه يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص ، وربما خشى صاحبه على ذهابه مع قِلَّته ونزارته بالنسبة إلى السمع » [1] .

ويقدم لنا علماء الأجِنَّة الآن تفسيراً آخر ، حيث يذكرون أن الأُذن الداخلية

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ١٠٥

OBEIKAN.COM

للجنين تنضج وتصبح قادرة على السمع فى الشهر الخامس من حياة الجنين ، على حين لا تُفتح العين ، ولا تتطور طبقتها الحساسة إلا فى الشهر السابع [١] .

وذكر بعضهم تعليلاً آخر ، وهو : أن مركز السمع يقع فى الفص الصدغى للمخ ، فى حين يقع مركز الإبصار فى الفص المؤخر فى آخر المخ ، أى أن مراكز السمع تتقدم على مراكز الإبصار [٢] .

وهذا بخلاف الأعضاء : العين والأذن ، فحيث ذُكرا فى القرآن تُقدَّم العين ، مثل : ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [٣] ، ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [٤] ، وما ذلك إلا لأن العين تتقدم على الأُذن فى صنعة الله الظاهرة .

وفى بحث العلامة ابن القيم هنا فى المقارنة بين السمع والبصر ، واختلاف العلماء : أيهما أفضل ؟ وبعد وأن ذكر أدلة كل من الفريقين ، قال رحمه الله : « والصواب : أن كُلاًّ منهما له خاصية فُضِّلَ بها على الآخر ، فالمدرَك بالسمع أعم وأشمل ، والمدرَك بالبصر أتم وأكمل ، فالسمع له العموم والشمول ، والبصر له الظهور والتمام وكمال الإدراك » [٥] .

* * *

---

(١) انظر : الإعجاز العلمى فى آيات السمع والبصر فى القرآن - للدكتورين : صادق الهلالى وحسين اللبيدى ص ٢١

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٩

(٣) الأعراف : ١٧٩

(٤) الأعراف : ١٩٥

(٥) مفتاح دار السعادة : ١/١٠٦

التعليم بعد التعلم

وينبغى للإنسان بعد أن يتعلم أن يُعلِّم غيره ، فزكاة العلم تعليم الغير مما علَّمه الله ، حتى يكون ربَّانياً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (١) .

وقد جاء عن غير واحد من علماء السَّلَف : أن الربَّانى هو الذى يعلم ويعمل ويُعلِّم .

وعن المسيح عليه السلام : « مَن علم وعمل وعلَّم ، فذاك يدعى عظيماً فى ملكوت السماء » !

وأصل التعليم والإعلام واحد ، ولكن اختص الإعلام بما كان بإخبار سريع ، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير ، حتى يحصل منه أثر فى نفس المتعلم ، كما قال الإمام الراغب (٢) . قال بعضهم : التعليم تنبيه النفس لتصور المعانى ، والتعلم : تنبه النفس لتصور ذلك ، وربما استُعمل التعليم فى معنى الإعلام إذا كان فيه تكرير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قَلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ ﴾ (٣) .

● **الله خير معلِّم :**

ومما يدل على فضل التعليم ، وعظيم منزلته ، أنه وصف من أوصاف الله تعالى ، فهو الذى يُعلِّم عباده ويسددهم ويرشدهم ، التعليم العام الذى يحتاج إليه الجميع ، والتعليم الخاص الذى يمنحه مَن يشاء من خلقه .

فهذا التعليم العام من دلائل ربوبيته وكرمه ، بل أكرميته سبحانه ، كما قال تعالى فى الآيات الأُولى من الوحى القرآنى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٤) .

---

(١) آل عمران : ٧٩ (٢) انظر : مفردات القرآن ص ٥٨٠

(٣) الحجرات : ١٦ (٤) العلق : ٣ - ٥

وهو كذلك من دلائل رحمانيته : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) ، فالمراد هنا : تعليم الأحكام ومعرفة الحلال من الحرام .

وقال سبحانه : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ومن التعليم الخاص : تعليمه لآدم عليه السلام الأسماء كلها : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (٤) .

وقد يُعتبر هذا من التعليم العام ، إذا اعتبرنا أن المقصود ليس تعليم آدم لشخصه ، وإنما هو تعليم لجنس البَشر ، الذين استخلفهم الله فى الأرض ، ورشحهم بالعلم لهذا المنصب . قال الراغب : « تعليمه الأسماء : هو أن جعل له قوة بها نطق ، ووضع أسماء الأشياء ، وذلك بإلقائه فى رُوعه ، وكتعليمه الحيوانات كل واحد منها فعلاً يتعاطاه » (٥) .

ومن التعليم الخاص : ما علَّمه الله تعالى لنبيه يعقوب ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦) .

ومنه : ما علَّمه لنبيه يوسف الصِّدِّيق ، وهو ما أنبأه به أبوه منذ الصبا : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ (٧) .

والمراد به : تعبير الرؤى وتفسير الأحلام ، كما فعل ذلك فى السجن ، وقال للسجينين : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ﴾ (٨) ، وقد ناجى ربه

---

(١) الرحمن : ١ - ٤ (٢) البقرة : ٢٨٢ (٣) البقرة : ٢٣٩
(٤) البقرة : ٣١ (٥) مفردات القرآن - المصدر السابق .
(٦) يوسف : ٦٨ (٧) يوسف : ٦ (٨) يوسف : ٣٧

OBEIKAN.COM

فى أواخر حياته بقوله : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (١) .

ومنه : تعليمه تعالى للخضر صاحب موسى ، كما قال سبحانه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ (٢) .

ومنه : تعليمه تعالى لداود ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (٣) ، ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٤) .

ومنه : تعليمه تعالى للمسيح عيسى ، كما بشَّر به أُمه : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٥) ، وكما امتنَّ عليه بقوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٦) .

ومنه : تعليمه لمحمد ﷺ ، الذى قال له : ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (٧) .

ورحم الله أحمد شوقى حين قال فى قصيدة المعلِّم :

سبحانك اللَّهُمَّ خيرَ مُعلِّم ... علَّمتَ بالقلم القرونَ الأُولى

أرسلتَ بالتَّوراةِ موسى هادياً ... وابنَ البتولِ فعلَّم الإنجيلا

وفجَرْتَ ينبوعَ البيان محمداً ... فسقى الحديثَ ، وناولَ التنزيلا

* *

---

(١) يوسف : ١٠١ (٢) الكهف : ٦٥ (٣) البقرة : ٢٥١

(٤) الأنبياء : ٨٠ (٥) آل عمران : ٤٨ (٦) المائدة : ١١٠

(٧) النساء : ١١٣

OBEIKAN.COM

● **رُسُل الله كلهم معلِّمون :**

والرُّسُل الذين بعثهم الله كلهم معلِّمون ، بعثهم الله برسالاته ، ليهدوا الناس إلى الصراط المستقيم ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ويعلِّموهم ما لم يكونوا يعلمون ، ولهذا وصفهم القرآن بأنهم مبشِّرون ومنذرون ، والتبشير والإنذار نوع من التعليم ، مقرون بالترغيب فى جانب التبشير ، والترهيب فى جانب الإنذار . قال تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) .

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ (٢) .

* *

● **محمد إمام المعلِّمين :**

وأما إمام المعلِّمين بحق فهو محمد ﷺ الذى جعل الله التعليم والتربية - المعبَّر عنها بالتزكية - من المعالم الأساسية لرسالته عليه الصلاة والسلام .

جاء ذلك فى أربع آيات من كتاب الله عَزَّ وجَلَّ . .

جاء ذلك فى دعوة إبراهيم حين كان يرفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل ، وهما يدعوان الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلَ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) .

وفى نفس السورة جاء قوله سبحانه : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ

---

(١) النساء : ١٦٥ (٢) البقرة : ٢١٣ (٣) البقرة : ١٢٧ - ١٢٩

يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وفى سورة آل عمران قال تعالى فى معرض الامتنان على المؤمنين : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

وفى سورة الجمعة يمتن الله على العرب فيقول : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام معلِّماً ومزكياً : يغرس العلم والفكر فى الرؤوس ، ويغرس الإيمان والزكاة فى النفوس ، والزكاة تعنى أمرين : الطهارة والنماء . الطهارة بالتخلى من الشرك والرذائل ، والنماء بالتحلى بالتوحيد والفضائل . وقد خرَّج - بتعليمه وتزكيته - أفضل جيل عرفته البَشرية ، نقله من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ، فزكَّاه بالإيمان ، وربَّاه بالإسلام ، ورقَّاه بالإحسان ، وحسبك أنهم الذين تلقوا عنه القرآن ، فتلوه حق تلاوته ، وأحسنوا حفظه وتعليمه لمن بعدهم ، وحفظوا عنه السنن علماً وعملاً ، ونقلوها إلى الأجيال ، وكانوا خير معلِّمين لأُمم الأرض ، لأنهم تتلمذوا على خير معلِّم ، وهو الذى قال عن نفسه : « إن الله بعثنى مُعَلِّماً مُيَسِّراً » (٤) .

ولا يتسع المقام هنا للحديث عن طريقته عليه الصلاة والسلام فى التعليم

---

(١) البقرة : ١٥١ (٢) آل عمران : ١٦٤

(٣) الجمعة : ٢ (٤) رواه مسلم .

OBEIKAN.COM

والتزكية ، وقد أُلِّفت فيها كتب ، وعرضنا لمواقف منها فى كتابنا « الرسول والعلم » فليُرجع إليه .

* *

● العلماء ورثة الأنبياء فى التعليم والبيان :

والعلماء هم ورثة الأنبياء ، يرثون منهم علم النبوة ، كما يرثون مهمتهم فى تعليم الناس ، وهداية الحائرين ، وتبيين الحقائق للجاهلين بها ، وتذكير الغافلين عنها ، لا يكتمون شيئاً من البيِّنات والهدى .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (١) .

ولقد تكرر فى القرآن الوعيد الشديد على كتمان ما أنزل الله من الهدى ودين الحق .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران : ١٨٧ (٢) البقرة : ١٥٩ - ١٦٠ (٣) البقرة : ١٧٤ - ١٧٥

OBEIKAN.COM

والمراد بالثمن القليل - فى هذه الآية وفى الآية السابقة - من سورة آل عمران - الذى اشتروا به بيان ما أنزل الله هو : متاع الدنيا ، أيًّا كان نوعه ومقداره ، فهو ليس إلا ثمناً قليلاً .

وأكد هذا المعنى القرآنى الأصيل : ما جاء فى الحديث النبوى من قوله صلى الله عليه وسلم : « مَن سُئِل عن علم فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » (١) .

وفى الحديث الآخر : « مَن كتم علماً عن أهله ، أُلْجِمَ يوم القيامة لجاماً من النار » (٢) .

* *

● ألا يستحى من قول « لا أعلم » :

ومن أدب التعلم كما يُصوِّره القرآن : ألَّا يستحى المتعلم من قول : لا أعلم أو لا أدرى ، إذا كان لا يعلم ولا يدرى ، فليس فى العلم كبير ، وليس فى الوجود مخلوق أحاط بكل شىء علماً ، إنما هذه صفة الله تبارك وتعالى ، وأما المخلوقون فيعلمون ويجهلون ، يعرفون شيئاً ، وتغيب عنهم أشياء . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٣) .

ومن هنا قصَّ علينا القرآن قصة آدم أبى البَشر عليه السلام ، وفيها : أن الملائكة - برغم منزلتهم وفضلهم وقربهم من الله تعالى - لم يستحوا أن يقولوا : لا نعلم ، فيما لا يعلمون .

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم ، كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٢٨٤) .

(٢) رواه ابن حبان والحاكم عن ابن عمرو ، وابن عدى عن ابن مسعود . المصدر نفسه (٦٥١٧) .

(٣) الإسراء : ٨٥

OBEIKAN.COM

يقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئكَة فَقَالَ أَنبئُونى بِأَسْمَاء هَؤُلاَء إن كُنتُمْ صَادقينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا علْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١) .

وقد علَّم الله خاتم رُسُله أن يكل إلى الله تعالى علم ما لا يعلمه ، مثل « علم قيام الساعة » الذى استأثر الله تعالى به ، فلم يُطلع عليه ملكاً مُقرَّباً ، ولا نبياً مرسلاً ، وقال لرسوله فى ذلك : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَة أَيَّانَ مَرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا علْمُهَا عندَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لوَقْتهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا تَأْتيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وتكرر ذلك عدة مرات فى القرآن ، تكرر السؤال وتكررت الإجابة : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ (٣) .

ولهذا حينما سأل جبريل فى حديثه المشهور النبى ﷺ عن الساعة ، أجابه بقوله : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » !

وكذلك حين سألوه - عليه الصلاة والسلام - عن « الروح » ما هى ؟ وما حقيقتها ؟ كان الجواب ما ذكرته الآية الكريمة : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٣١ - ٣٣
(٢) الأعراف : ١٨٧
(٣) الأحزاب : ٦٣
(٤) الإسراء : ٨٥

ولا غرو أن شاع هذا الأدب فى الأُمة الإسلامية ، وفى الحضارة الإسلامية ، وقد كان رسول الله ﷺ الأُسوة الحسنة ، والمثل الأعلى فيه ، فحين يُسئل عن شىء ليس عنده فيه علم من الله تعالى يتوقف حتى ينزل عليه الوحى ، ولا يتهجم على القول بغير علم .

واشتهر عن علماء الأُمة قولهم : « لا أدرى » : نصف العلم .

وقال الإمام علىّ كرَّم الله وجهه : مَن أخطأ قول « لا أدرى » أصيبت مقاتله !

وكثيراً ما سُئِل الأئمة الكبار عن مسائل من العلم فقالوا فيها : لا ندرى ، حتى رووا أن إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه سُئِل عن أربعين مسألة ، فقال فى ست وثلاثين منها : لا أدرى !

وجاءه رجل فقال : يا أبا عبد الله ؛ جئتك من مسيرة ستة أشهر ، حملنى أهل بلدى مسألة أسألك عنها . . قال : فسل . . فسأله الرجل عن المسألة ، فقال : لا أحسنها . . فبهت الرجل ، كأنه قد جاء إلى مَن يعلم كل شىء ! فقال : أى شىء أقول لأهل بلدى إذا رجعتُ إليهم ؟! قال : تقول لهم : قال مالك : لا أحسن !

وقال مالك : ينبغى للعالِم أن يألف فيما أشكل عليه قول : « لا أدرى » فإنه عسى أن يُهيأ له خير .

وقال ابن وهب : لو كتبنا عن مالك : « لا أدرى » ، لملأنا الألواح .

وقال مالك : كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين ، وسيد العالَمين ، يُسئل عن الشىء ، فلا يجيب حتى يأتيه الوحى .

وقال : هذه الملائكة قد قالت : « لا علم لنا » !

وقبل مالك سُئِل الإمام الشعبى عن مسألة فاستصعبها ، وقال : لأ أحسنها ، ولو أُلقيت على بعض أصحاب رسول الله ﷺ لأعضلت بهم ! فقال له بعض

OBEIKAN.COM

أصحابه : قد استحيينا لك مما رأينا منك ! قال : ولكن الملائكة المقرَّبين لم تستحى حين قالت : « لا علم لنا إلا ما علَّمتنا » !

وسُئل القاسم بن محمد - أحد الفقهاء السبعة بالمدينة فى عصر التابعين - عن شىء ، فقال : لا أحسنه . فقال الرجل : إنى رُفعت إليك لا أعرف غيرك ! فقال القاسم : لا تنظر إلى طول لحيتى ، وكثرة الناس حولى ، والله ما أحسنه . فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه : يا ابن أخى الزمها ، فوالله ما رأيتك فى مجلس أنبل منك اليوم ! فقال القاسم : والله لأن يُقطع لسانى أحب إلىَّ من أن أتكلم بما لا علم لى به !

وقبل القاسم والشعبى قال ابن مسعود رضى الله عنه : « يا أيها الناس ؛ مَن سُئل عن علم يعلمه فليقل به ، ومَن لم يكن عنده علم ، فليقل : الله أعلم . فإن من العلم أن تقول لما تعلم : الله أعلم ، إن الله قال لنبيه : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (١) .

وعن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : « أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إذا قلت فى كتاب الله بغير علم » ؟

وعن علىّ رضى الله عنه أنه خرج عليهم ، وهو يقول : ما أبردها على الكبد ، ما أبردها على الكبد ! فقيل له : وما ذاك ؟ قال : أن تقول للشىء لا تعلمه : الله أعلم .

وعن عقبة بن مسلم قال : صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً . فكثيراً ما كان يُسئل فيقول : لا أدرى ، ثم يلتفت إلىَّ فيقول : تدرى ما يريد هؤلاء ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً لهم إلى جهنم ! (٢) .

* * *

---

(١) سورة ص : ٨٦

(٢) هذه الآثار ذكرها ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم » بأسانيد صحيحه أوحسنه أو لا بأس بها ، وبعضها أصله فى الصحيحين ، كحديث ابن مسعود ، انظر : « جامع بيان العلم » : ٢/٨٢٦ - ٨٤٣ ، باب : ما يلزم العالم إذا سُئل عما لا يدريه من وجوه العلم - طبع دار ابن الجوزى - الأولى - بالدمام - السعودية . تحقيق الزهيرى .